



وهي احجار تشبه تلك التي بنيت بها بعض العمانر الفاطمية في القاهرة، وكان السور مزودا بقلع وفتحات يطلق منها النار لتعزيز الجند وستة عشر برجاً للمراقبة، ثمانية في السور الأول وثمانية في الزيادة التي أضيفت من البحر، وكانت هذه الأبراج تعرف بتسميات مختلفة كبرج ابي الوزان، وبرج عيسى، وبرج الدهان^(١٤).

الأبواب.

أراد عبيد الله المهدي ان يحكم متانة حاضرتة فشيّد على سورها بابين من الحديد ووضع على كل باب مصراعين من الحديد وبلغ وزن كل مصراع مائة قنطار وبلغت وزن كل باب الف قنطار وطوله ثلاثون شبراً في كل مسمار من مساميرها ستة ارجال ، وكانت الأبواب تزين بصور الحيوان وهو ما يعني ان الفن الفاطمي الأول في بلاد المغرب كان فناً تصويرياً يأخذ بصور الأشخاص الحية ، كما كان الفن الإسلامي الأول على عهد الامويين في بلاد الشام ، وكان يدخل كل باب من أبواب المدينة دهليز يسع خمسمائة فارس ، ويصف لنا ابن حوقل المعاصر للفاطميين أبواب المهدية التي شاهدها بقوله (ليس لهما فيما رأيته شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرفقة وعلى مثالها عملاً). ولم يبق من أبواب المدينة حتى الوقت الحاضر الا الباب المعروف ببرج السقيفة الكحلاء ، وهو مدخل المدينة الرئيس من جهة الغرب و هو عبارة عن حصن منيع مدمج في السور وظل على حالته الاصلية الى عصر الاتراك في القرن الحادي عشر الهجري^(١٥).

المنشآت الصناعية والتجارية:

دار الصناعة

قام عبيد الله المهدي داراً لصناعة السفن في الجزء الشرقي في المنطقة الجبلية تسع منبتين مركب عليها باب مغلق ويحدثنا ابن عذاري عن اعجابه بدار الصناعة بقوله: بالمهدية دار صنعة الانشاء عجيبة يخرج السفن معموراً خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ العدو القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو: وكان الاسطول الفاطمي الذي صنع في المهدية يتكون من عدة قطع هي الشواني والحراقة والطريدة والطراة والشلندي^(١٦).

(١٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٠.

(١٥) حسن إبراهيم وآخرون: عبيد الله المهدي، ص ٢٠٥.

(١٦) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٩٥.

ارتأى إدريس الثاني أن يبعث وزيره عمير بن مصعب الأزدي^(٢)، لكي يرتاد له موضعاً مناسباً يبني فيه عاصمته الجديدة فصار عمير في جماعة يتقصى الجهات ويتخير البقاع والترب والماء حتى انتهى إلى فحص سايس، فأعجبه الموضع وفيها عين ماء عذبة في مرج أخضر فتوضى في الموضع وصلى الظهر هو وجماعته وعرفت العين بأسمه بعين عمير ثم أوغل عمير في فحص سايس حتى وصل إلى العيون التي ينبع منها وادي فاس وتبلغ ما يقارب الستين عين وكان حول هذه العيون بعض خيام الشعراء، فتقدم عمير مع مسيل الوادي حتى بلغ موضع مدينة فاس ونظر فكانت غيضة ملتفة بالأشجار تَسِر الناظر بجمال العيون والأنهار شاخصه بين جبلين وفي إحدى جوانبها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الخير وقوم من زناتة هم بني يرغش، وكانوا على دين المجوسية يقطنون بجهة عدوة القرويين وبني الخير يدينون بالنصرانية ينزلون بجهة عدوة الأندلسيين وبينهم حروب وقتال وقلما يفترقون عن الاقتتال مع بعضهم لاختلاف أهوائهم ومشاربهم وتباين أديانهم^(١).

ثم عاد الوزير عمير بن مصعب الأزدي إلى مدينة ويلي وأعلم إدريس الثاني بما رأى من الغيضة وساكنيها وما وقع عليه اختياره فيها فسر إدريس بكلام عمير ومار ليرى بنفسه الموضع فالتقى ببني الخير وبني يرغش يقتتلون مع بعضهم فأصلح بينهم وأسلموا على يده وفاوضهم على الغيضة وأستطاع من شرائها منهم بستة آلاف درهم ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك كاتبه أبي الحسن عبدالله بن مالك الخزرجي^(٢). إن المكان الذي اختير لأنشاء المدينة يتمتع بمقومات تأسيس مدينة من وفرة المياه العذبة والجو المعتدل والأرض الخصبة ووفرة المواد الأولية للبناء وتصلح لإقامة مجتمع كامل وتكون منطقة جذب سكاني واستمرار في بقاء المدن وتطورها ويجوز هذا النهر نهر آخر يسمى روغة^(٣).

(٢) عمير بن مصعب الأزدي: أحد الوافدين العرب إلى إدريس الثاني سنة (١٨٩هـ/٨٠٥م)، من قبائل الأزد المعروف بالملجوم من ضربة ضربه في بعض حربه استوزرة إدريس الثاني بعد قتله إسحاق بن محمد الأوربي؛ ينظر: الناصري، الاستقفا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢١.

(١) الناصري، الاستقفا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢١.

(٢) الناصري، الاستقفا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢٢.

(٣) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ١، ص ٢٢٢؛ الناصري، الاستقفا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢١.

مدينة فاس

أولاً_ موقع البناء وسبب اختياره:

تقع مدينة فاس ضمن الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة^(١) وقد تمتعت فاس بموقع جغرافي مميز في بلاد المغرب وذلك بحكم سيطرتها على الطرق التجارية التي تمر بأرضها حيث تقع فاس عند ملتقى طريقين رئيسيين حددتهما طبيعة الأرض، أحدهما يبدأ عند شواطئ البحر المتوسط في طنجة^(٢) بعد أن ضاقت مدينة ويلي التي وضع فيها الأركان الأولى لقيام دولة الإدارة وكانت محل إقامة إدريس الأول وابنه فيما بعد أن ولد وبعد أن تقلد إدريس الثاني زمام أمور الحكم ووفود العرب وغيرهم وبايعوا إدريس فسكنوا واستوطنوا حتى ازدحمت المدينة بساكنيها فكان لزاماً على إدريس الثاني أن يجد حلاً لذلك فأتخذ قرار بناء مدينة وعاصمة جديدة يسكنها هو وحاشيته ووجوه دولته وخرج يتخير البقاع حتى وصل منطقة جبل زالغ، وأعجب إدريس بهذا الجبل وبارتفاعه وطيب هوائه وصلاحيته تربته فأخطط للمدينة ما يلي الجوف وشرع بنائها فبنى بعضاً من الدور وأحاطها بسور ووصل نسبة العمل فيه إلى الثلث وبهذه الأثناء نزل عليهم سيل من أعلى جبل زالغ ودمر السور والدور وكل ما قام به من عمل وحملها وألقاها في نهر سبو، وعلى أثر ذلك عدل إدريس عن فكرة تأسيس مدينته في هذا الموضع حتى ترك فكرة البناء لمدة يسيرة وبعدها خرج مرة ثانية بتصيد ويرتاد لنفسه موضعاً جديداً يأسس فيه عاصمته الجديدة فأنتهى إلى نهر سبو قرب حمة خولان، وأعجب إدريس الثاني بهذا الموضع ومن مميزاته قربه من الماء وعين حمة خولان ووفرة المواد الأولية لبناء المدينة، وعلى وفق ذلك قرر إدريس الثاني هذا المكان هو موقع بناء مدينته الجديدة وشرع في حفر البناء وصنع الجيار واقتطع الخشب وفي أثناء عمليات البناء ووضع الأسس أطلع إدريس الثاني بنظرة ثانية وشاملة إلى موضع البناء فأكتشف خطر نهر سبو على المدينة إذ ما تم تأسيسها فخشى أن تأتي مدود النهر وفيضاناته وسيوله، لاسيما في فصل الشتاء ويؤدي إلى الأضرار في المدينة كما حدث في المحاولة الأولى لتأسيس مدينته فترجع وكف عن البناء وعاد إلى ويلي^(٣).

(١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق: اسماعيل العربي، ط١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت - ١٩٧٠م)، ص ١٤٠.

(٢) طنجة: وهي مدينة أزلية قديمة تقع على ساحل البحر المحيط على رأس المجاز الى بلاد الأندلس وهي محط للسفن افتتحها القائد العربي عقبة بن نافع انظر: البكري، المسالك والممالك، ج٢، ص ٢٩١؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص

أخبار المغرب، ص ٤٣٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٥.

(٣) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص ٢٢٠.

ثانياً_ تأسيس وبناء المدينة:

يوجد عدة آراء حول تاريخ نشأة مدينة فاس، لاسيما بعد اصدار كتاب للمستشرق ليفي بروفنسال، الذي حقق في أصل نشأة فاس، أن المعروف والشائع عن تاريخ بناء المدينة عند الاغلب المؤرخين على عهد إدريس بن إدريس بن عبدالله سنة (١٩٢هـ/٨٠٨م)^(١)، ورأي آخر يشير إلى بدايات نشأة فاس تعود إلى إدريس بن عبدالله الذي ظهر على البربر وأسس بهم مدينة فاس سنة (١٧٢هـ/٧٨٨م)، أو سنة (١٧٤هـ/٧٩٠م)^(٢)، وسنعرض ادلة الفريقين محاولة للوصول إلى النظرية الاقرب إلى الصواب:

وأول إشارة وردت بهذا الصدد تذكر أن مدينة «فاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل ونهرها كبير غزير الماء عليه أرحية كثيرة وهي مدينة خصبه مفروشة بالحجارة أحدثها إدريس بن إدريس في كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة وجميع ما بها من الفواكه»^(٣).

ويورد البكري كذلك في ذكر مدينة فاس يقول فيها «مدينة فاس مدينتان مقترنتان مسورتان بينهما نهر يطرد وأرجاء وقناطر وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلسيين... وأسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة، وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس»^(٤)، ثم يورد البكري رواية أخرى بخصوص بيعة إدريس واكتشاف المؤامرة المدبرة التي حاكها ابن إبراهيم ابن الأغلب، عن طريق إسحاق الأوربي فقتله وبعث برأسه إلى المشرق « نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين وأقام بها شهراً، وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة وكانت عدوة القرويين غياضاً في أطرافها أبيات من زواغة، فأرسلوا إلى إدريس فدخل عندهم فأتمس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين ومائة»^(٥)، ومن خلال كلام البكري يتضح أن فاس تتكون من جزئين كل جزء يحيطه سور يفصلهم نهر شديد التيار ويسمى الجزء الأول ضفة القرويين والجزء الآخر يعرف بضفة الأندلسيين أسست سنة (١٧٢هـ/٧٨٨م)، وضفت القرويين شيدت سنة (١٩٣هـ/٨٠٩م) على عهد إدريس الثاني، أن الرواية المهمة التي تشير إلى قدوم إدريس الثاني ونزوله في عدوة الأندلسيين سنة (١٩٢هـ/٨٠٨م) وقد اقام فيها لمدة شهر هذا يدل على أنها كانت موجودة وقائمة قبل نزول إدريس الثاني فيها.

(١) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) ليفي بروفنسال، الاسلام في المغرب والأندلس، ص ٢١.

(٣) ابن حوقل، صورة الارض، ج ١، ص ٩٠.

(٤) البكري، المسالك والممالك، ج ٢، ص ٧٩٥.

(٥) البكري، المسالك والممالك، ج ٢، ص ٨٠٥.

ثالثاً: تسمية المدينة:

تعددت الآراء حول أصل تسمية مدينة فاس فهناك آراء مختلفة ومتضاربة بما يتعلق بالتسمية هناك رأي يقول بأن سبب تسمية المدينة يعود إلى عثور على الواح أو كميات ذهبية منقوش عليها اسم فاس أما الرأي الآخر يرى بأن سبب اسم مدينة فاس هو وجود نهر يخترق المدينة يحمل اسم ساف والنهر بالبربرية يعني ساف فقلب هذا الاسم إلى فاس سواء من قبل الإمام إدريس أو من قبل ساكنيها بمرور الزمن^(١)، الرأي الأول صعب التسليم به؛ لأن هذه المنطقة لم تشهد استيطان عربي سابق، والرواية الثانية يمكن أن تكون صائبة لكن لا يوجد عليها أجماع من قبل المؤرخين؛ لاسيما أن النهر الذي يخترق المدينة هو سبو وأتفق عليه أغلب المؤرخين.

أما الرأي الثالث يشير إلى أن سبب تسمية المدينة بهذا الاسم يعود إلى أن الإمام إدريس عندما بدأ بالشروع بحفر الأساس بدأ بالحفر بفأس من الذهب فكثر ذكر اسم فأس على السنة الصنائع والفعلة فكانوا يقولون هاتوا الفأس خذوا الفأس أحفروا بالفأس فسميت فاس لأجل ذلك، ورأي آخر يفترض بأن مدينة فاس سبب تسميتها العثور على فأس كبير عندما كانوا يحفرون أساس المدينة يبلغ طوله أربعة أشبار ووزنه ستون رطلاً نو صناعة قديمة وعلى وفق ذلك سميت فاس^(٢).

رابعاً: تخطيط مدينة فاس وأبوابها:

شرع الإمام إدريس الثاني في تأسيس مدينة فاس غرة ربيع الأول سنة (١٩٢هـ/٨٠٨م)^(٣)، بأن إدريس الثاني شرع ببناء السور من جهة القبلة فتح باباً سماه باب القبلة^(٤)، وتبعة باب آخر بين الفوارة، وزيتون ابن عطية أطلق عليه باب الفوارة^(٥)، مؤدياً إلى سلجاسة مروراً بالسور على المخفية ثم الوادي الكبير ثم إلى برزخ وفتح باباً أسماه باب المخفية^(٦)، وتابع بناء السور ففتح في منطقة رأس الحجر الفرج باب أبي سفيان^(٧)، وفي منطقة جلاوة افتتح باب الكنيسة^(٨)، من جهة الشرق وأطلق عليه فيما بعد باب الخوخة^(٩)، وخصص الإمام مكان خارج باب الكنيسة لإقامة المرضى حيث الهواء الغربي الذي يهب على هذه المنطقة بشكل مستمر فيحمل

(١) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٢) الجزلاني، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٢٣، ٢٤.

(٣) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢٢.

(٤) الجزلاني، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٢٤.

(٥) أحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص ٣٤.

(٦) الجزلاني، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٢٤.

(٧) ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، ص ٤٠.

(٨) ابن أبي زرع الأئيس المطرب بروض القرطاس، ص ٤٠.

(٩) الجزلاني، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ص ٢٤.

سجل

معه روائعهم بعيداً عن سكان المدينة ويكون تصريف الماء الناتج عن غسلهم خارج المدينة^(١)، بعد أن استطاع الإمام من اكمال السور حول المدينة انصرف لبناء المسجد الجامع فأختط له قرب رحبة البير واسماه بجامع الاشياخ^(٢)، وعرفت بعدوة الأندلسيين جراء هجرات العرب من الأندلس إلى المغرب ومنهم من ذهب إلى المشرق بسبب اجهاض ثورة الربض^(٣)، التي قامت على الأمير الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس في قرطبة ومن زعماء علماء منهم الثورة يحيى بن يحيى الليثي^(٤)، وأن هذه الهجرة لم تتوقف في زمن معين ولم تحدد بمدة وبقيت مستمرة حتى ما بعد سقوط غرناطة^(٥).

أما العدة الثانية وهي عدوة القرويين أسسها إدريس الثاني بعد مرور عام على تأسيس العدة الأولى وذلك سنة (٨٠٩/هـ ٨١٩٣ م)، وعرفت بعدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها وتقدر أعدادهم بثلاثمائة أسرة وكان موضع العدة وفير الأشجار وتخرج منه ينابيع كثيرة فأعجب الإمام إدريس بجمال المنطقة وقرر الشروع في تأسيس هذه العدة فنزل بالموضع المعروف بالمقعدة وضرب فيه قيطونة وأمر ببناء جامع الشرفاء وأقام فيه خطبة الجمعة ثم شرع في بناء دارة المعروفة بدار القيطون لتكون مسكن له ولعائلته وخاصته، ثم قام ببناء القيسارية بالقرب من جامع الشرفاء وأدار الأسواق حول المسجد الجامع وأمر الناس بالبناء وقال لهم من بنى في موضع واغترس الزرع داخل سور العدة فهو له فكثرت البناء والزرع، ووفد جماعة من الفرس من أرض العراق فأنزلهم بغيزة تعرف بعين علون وكانت غيزة من الأشجار يقطنها رجل أسود البشرة يدعى علون يقطع ويهدد طريق المارة فكان الناس يجتنبون المرور بهذه المنطقة خوفاً من علون فلما علم الإمام

(١) ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس ، ٤١، ٤٠.

(٢) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢٢.

(٣) ثورة الربض: وهي ثورة حنثت في عاصمة الأندلس قرطبة على عهد الأمير الأموي هشام بن عبدالرحمن، وكانت قيادة الثورة بيد فقهاء المالكية بسبب تجاهله لهم فعملوا على إثارة العامة عليه واتخذت هذه الثورة طورين الأول سنة (٨٠٥/هـ ٨١٨٩ م)، وباءت بالفشل وقتل قائدها الثانية سنة (٨١٧/هـ ٨٢٠٢ م)، وهذه كانت شرسة جداً كادت ان تطيح بالحاكم لكن تمكن منهم وقتل خلق كثير وإزاح الربض وحرث أرضها وزرعها وفرق أهلها، واستقر فريق منهم بمدينة فاس ورحب بهم الإمام إدريس الثاني حتى سميت عدوة الأندلسيين بأسمهم؛ ينظر: الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١، ص ٢٢٢؛ خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد(بيروت-٢٠٠٠م)، ص ١١٨، ١١٩، ١٢٠.

(٤) ابن أبي زرع الأئيس المطرب بروض القرطاس ، ص ٤٧.

(٥) سعيدة العلمي، فاس في ذاكرة الأندلس، كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس بفاس، ندوة فاس: التاريخ والتراث والاشعاع الثقافي، فاس، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٤.